فن الرثاء عند محمد البياسي
دراسة موضوعية

إعداد

الباحثة/ هناء ثروت عبدالرازق عمر

باحثة ماجستير في الآداب تخصص/ لغة عربية

تاريخ الاستلام: ١٠/٧/٢٠٢٠م

تاريخ القبول: ١٣ /٩/٢٠٢٠م

ملخص:

يتناول هذا البحث دراسة موضوع "**شعر محمد البياسي "دراسة موضوعية فنية""**؛ حيث يدور حول حياة الشاعر وأدبه وجهوده في النهوض بالشعر، وتقصي أغراضه الشعرية، وصوره الفنية ولغة شعره، وأسلوبه.

المنهج المستخدم في هذا البحث هو المنهج الوصفي التحليلي، حيث يصف البحث حياة الشاعر، والموضوعات الشعرية عنده والخصائص الفنية لشعره وكذلك تحليل هذه الموضوعات تحليلا أدبيا.

وقد احتوت هذه الدراسة على مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة :

الفصل الأول: الدراسة الموضوعية؛ ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث: الشعر الوجداني، الشعر الوطني والقومي، موضوعات أخرى.

الفصل الثاني: الدراسة الفنية؛ ويتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث: المعجم والتراكيب، التصوير، الموسيقى.

Abstract:

This research deals with the study of the topic "The poetry of Muhammad Al-Bayasi" an objective and artistic study. “It revolves around the poet’s life, literature and efforts in promoting poetry, and investigation

His poetic objects, artistic images, language of poetry, and style.

The method used in this research is the descriptive and analytical method, where the research describes the poet’s life, his poetic issues and the technical characteristics of his poetry, as well as analyzing these topics in literary analysis.

This study contains an introduction, an introduction, two chapters and a conclusion:

Chapter One: Thematic Study; this chapter consists of three topics: emotional poetry, patriotic and national poetry, and other topics.

Chapter Two: Technical Study; this chapter consists of three sections: Lexicon and Composition, Photography, and Music.

أولًا- نبذة عن حياة الشاعر:

اسمه ونسبه:

هو محمد خالد بيَّاسه[١]، يُكنى أبا خالد، ويُلقب بالبيَّاسي، نسبة إلى مدينة بَيَّاسَة[٢] بالأندلس، ويذكر البياسي أنَّ من أعلام العائلة أبو زكريا يحيى البيَّاسي[٣]، البيَّاسي صاحب الحماسة[٤] ، الشاعر أكناني البيَّاسي[٥] .

مولده ونشأته:

ولد في بانياس الساحل السورية[٦] في ١٩٦٦/٣/١٨م. يعمل جل عائلته بدائرة التعليم لديهم مطابع ومعاهد ومكتبات ومدارس، وكثير منهم تخصصوا في الأدب العربي. أمَّا عن نشأته فيقول: " ربتني جدتي لأبي وكان يُقال لها: الشيخة حتى لُقبتُ في صغري بمحمد الشيخة نسبة لها"[٧] .

تخرج في كلية الحقوق تخصص قانون دولي بجامعة حَلَب، لم يعمل موظفًا يومًا ما، عضو اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، مؤسس رابطة شعراء العرب[٨]، أنشأ عدة شركات تجارية وخدمية، حصل على العديد من الجوائز وشهادات التقدير.

ثانيا- الرثاء:

الرثاء أصدق الشعر؛ لأنه نابع من إحساس صادق بالتفجع والحسرة لفقدان عزيز والحزن على مافات من ذكريات مرت مع المفقود وكانت مصدر سعادة للراثي.

"قال الأصمعي: أحسن أنماط الشعر المراثي والبكاء على الشباب. . . قلت لأعرابي: ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأنا نقولها وقلوبنا محترقة"[٩]

والرثاء لغة تعداد لمحاسن الميت، جاء في لسان العرب: "رثى فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته. قال فإن مدحه بعد موته قيل رثاه يرثيه ترثية. ورثيت

الميت رثيا ورثاء ومرثاة ومرثية ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيته. ورثوت الميت أيضا إذا بكيته وعدَّدت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعرا. (١٠)

أما في الاصطلاح؛ فهو"تَعداد مناقب الميت، وإظهار التفجع والتلهف عليه، واستعظام المصيبة فيه". (١١)

قسم الدكتور شوقي ضيف الرثاء في الشعر العربي، بحسب قوة العاطفة، إلى ثلاثة ألوان؛ هي الندب والتأبين والعزاء.

أما الندب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت، فيئن الشاعر ويتفجع. والتأبين تعبير عن حزن الجماعة وتسجيل لفضائل المفقود، والعزاء التفكير في حقيقة الموت والحياة والتصبر بأن الكلَّ زائل. (١٢)

اشتمل شعر البياسي المطبوع على سبع مرثيات، بنسبة ١٠. ٤% من شعره المطبوع: اثنتان في رثاء زوجته "بشرى"؛ هما قصيدة "سامحيني"(١٣) التي احتلت عشرين صفحة من ديوان "جالا"، وقصيدة "كسَّر عكازه"(١٤) التي احتلت صفحتين من نفس الديوان، وثلاث قصائد في رثاء الوالدين؛ هي "تركاني"(١٥)، "من الجهات الأربع"(١٦)، "مبضع الجرَّاح"(١٧) . وهناك قصيدة " في فم المنفى"(١٨) التي يمكن عدها من رثاء النفس، وقصيدة " معلق على الصليب"(١٩) وهي في رثاء الوطن.

وهذه المرثيات السبع ليست كل ماكتب "البياسي" في الرثاء؛ فهناك الكثير من المرثيات– على حد قوله– لم تُطبع بعد، وهي في أغلبها في رثاء زوجته "بشرى"، ويوجد بعض منها على صفحات المواقع الإلكترونية.

رثاء الزوجة:

عُرف رثاء الزوجة منذ العصر الجاهلي، ولكنه نادر جدا في هذا العصر، "ولعل مرجع ذلك إلى العرف السائد في أن يكون الرجل جلدًا صبورًا قليل الجزع"(٢٠)،

ويقول ابن رشيق: "ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا، أو امرأة؛ لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات"[٢١]، ومن أمثلة رثاء الزوجة، ماقاله عمرو بن قيس بن مسعود المرادي: [٢٢]

سُعيدَ قومـي على سُعدى فبكِّيها[٢٣] فلست محصيةً[٢٤] كلَّ الذي فيها

في مأتم كظباء الروض قد قرحتْ[٢٥] من البكاء على سُعدى مـآقيها

كذلك ندر رثاء الزوجة في العصر الإسلامي، والعصر الأموي، ويعد جرير[٢٦] أشهر من رثى زوجته في العصر الأموي وذلك في قصيدته التي يقول في مطلعها:[٢٧]

لـولا الحياء لعَادني[٢٨] استعـبار[٢٩] ولزُرْتُ قَبـرك والحبيب يُزارُ

أما في العصر العباسي؛ فقد بدأ رثاء الزوجات يظهر في قصائد أكثر من شاعر، وممن رثى زوجته في هذا العصر مسلم بن الوليد الأنصاري[٣٠]، يقول في مطلع قصيدته: [٣١]

بكاءٌ وكأْسٌ كيـف يتَّفِقان سبيلاهُما في القلب مختلفانِ

دعاني وإفراط البكاء فإنني أرى اليوم فيه غير ما تريانِ

وكذلك أبو حية النميري[٣٢] ومحمد بن عبدالملك الزيات[٣٣] وابن الرومي[٣٤] وديك الجن[٣٥] [٣٦]، كانوا ممن ماتت زوجاتهم فحزنوا على فراقهن، ونظموا شعرا تنفيسا لآلام هذا الفراق.

أما في العصر الحديث، فقد نال شعر رثاء الزوجة حظا وفيرا، فنجد من الشعراء من يخصص ديوانا كاملا في رثاء الزوجة مثل عزيز أباظة[٣٧] صاحب ديوان "أنات حائرة" الذي صدر عام ١٩٤٣م، يقول في قصيدة "نجوى"[٣٨] :

فَقدتُ نعيمَ العيْشِ لمَّا فقدْتُها وكُنَّا مَعًا والعْيشُ فيْنَانُ مُتْرَفُ

أَذوقُ بَها شُهْدَ الحَيَاةِ وخمْرَها ومُذْ ذَهَبَتْ فالثُّكلُ ما أَتَرشَّفُ

وعبد الرحمن صدقي[٣٩] صاحب ديوان "من وحي المرأة"، يقول في قصيدة "كيف أعيش"[٤٠] :

أَعيشُ فلا عَيْشي مَرَاحٌ ومَلْعَبٌ ولا فيه_مُذْ ماتت_مَرادٌ ومَطْلَبُ

مَضَى حَافزي للمجد واللهوِ كُلُّه فلا اللهوُ أَبغيه، ولا المجد أَخْطبُ

فالشاعران لم يهنأ لهما عيش بعد وفاة زوجاتهما، بل ذاقا مرارة الفقد ولوعة الفراق.

ونجد البارودي[٤١] ينظم قصيدة طويلة في رثاء زوجته، يقول في مطلعها[٤٢] :

أَيَـدَ المنـــون قَـدَحْتِ أيَّ زِنَـــادِ وَأَطَرْتِ أَيَّـــةَ شُعْلَـةٍ بِـفـؤادي

أَوْهَنْتِ عزْمي وَهْوَ حَمْلَةُ فَيْلَقٍ[٤٣] وَحَطَّمْتِ عُودِي وَهْوَ رُمْحُ طِرَادِ[٤٤]

فقد ألهب موت الزوجة نار الحزن في قلب"البارودي"؛ فأضعف من عزمه وحَطَّم جَسده.

والبياسي كغيره التاع قلبه لفراق زوجته وحبيبته ورفيقة دربه؛ فنظم الشعر؛ لينفس عن نفسه نار لوعته، يقول من قصيدة "سامحيني"[٤٥] :

فَات عُمْرٌ قَضَيْتُه فِي هَوَاهَا

كَيْفَ؟

قُلْ لِي

فِي لَمْحِ عين يَفُوتُ

وبَنَينا. .

ثُم انْقَضَى مَا بَنَينَا

إن للريح مَا بَنَى العنْكَبُوتُ

هكذا الدُّنْيَا

خفقةٌ ثُم موتٌ

مَالمَخْلوقٍ فِي يَدَيْهَا ثبُوتُ

فَشَفَى نَفْسِي إذَا تذكرتُ بُشْرَى

أَنني بَعْد مَوْتها سَأَمُوتُ

فالبَيَّاسِي يَتَحَسر على مافات من أيام قضاها برفقة زوجته، ويتعجب لانْقِضاء هذا العمر سريعا، ولكنه يُعزي نفسه بأن الحياة فانية لا تدوم لأحد، ويصبرها بأنه سيأتي عليه يوم ويلحق بزوجته؛ فلا حياة له بعدها.

ويخاطب البياسي قبر زوجته؛ فيقول:

عِمْ صَباحًا. . . يا قبرها. . . عِمْ صَباحا

عِمْ مَساءً. . . عِمْ غُدوةً. . . عِمْ رَواحا

لا تَكُنْ مِثلي . . ضيّقَ الصدر مثلي

بـلْ تَـفَـتّحْ حَـفَـاوَةً وانْـشِـراحـًا

إنْ تَـكُـنْ من أَسكنتَ فـيـكَ بِخِيرٍ

هَـدَأَ الـقَـلـب المُبْتَلَـى. . واسْتَرَاحـا

فبعد التحية والدعاء بالخير، يطلب الشاعر من القبر أن يتسع لزوجته؛ حتى يطمئن قلبه عليها ويستريح.

ويصور البياسي معاناته بعد أن وضع نصف روحه في التراب؛ فيقول:

نصفٌ روحٍ. .

وضَعتُه في ترابٍ

أين بشرى من بعدِ هذا

و"أيني"

غربةٌ في الأنا

وغُربةُ قلبٍ

يا"لَشيءٍ"

يعيش في غربتينِ

ليس بيني وبين موتي حجابٌ

لا أرى شيئًا بين موتي وبيني

وهنا. .

لا هناك

أبصرُ داري

وعلى مرْأىً من شعوري وعيني

أنتَ يا قبر حَبذا من ملاذٍ

قاب قوسين أنتَ أو خطوتينِ

فالموت أصبح منه قريبًا، وهو الملاذ من مأساته؛ فموت زوجته حطم نفسه وأهلكها؛ فتمنى أن يموت مثلها كي يستريح من ألم الحسرة:

ذَهَبَتْ نَفْسِي كُلُّها

حَسَرَاتٍ

لَيْتها أَجْدَتْ تِلكمُ الحسراتُ

لَمْ أَزَلْ أَبْكِي فَقْدَ بُشْرَى

وَقَلْبِي

بيتُ نارٍ

وَأَدْمُعِي جَمَراتُ

إنني حيٌّ

غير أني لعمري

ميّتٌ ما بداخلي

ورفاتُ

فمتى يحملُ المحبُّون نعشي؟

ومتى يَنْعاني كبُشرى النعاةُ؟

ويظل البياسي يبكي "بشرى"، راجيا أن تسامحه على قسوة قلبه الذي لم يتقن الحب:

سامحيني

فإنَّ صخرة قلبي

لم يَصِلْها

ماقاله الفَيْروزُ(٤٦)

سامحيني

لم أُتْقِنِ الحبّ يوما

كلُّ قلبي طلاسمٌ

ورموزُ

ويلهبه الشوق إليها؛ فيبث في روحه اليأس من الحياة وتمني الموت حتى يجتمع بها :

كلما مَرَّتْ لحظةٌ منذ غابتْ

مَدَّدَ الشَّوقُ نارَه(٤٧)

في ضلوعي

ليس لي

غيرَ الموتِ حَلٌّ

فما من عودةٍ ترتجى

وما من رجوعِ

وقد سيطرت فكرة الموت على البياسي منذ بداية القصيدة وحتى النهاية؛ فموت زوجته كان بمنزلة موتٍ لروحه وقلبه؛ فما في الحياة_بعدها_ما ينعشهما، وقد جاءت قصيدة "كسر عكازه"(٤٨) تأكيدا لهذا المعنى؛ فهي تبث انهيارا وهلاكا لنفس الشاعر، يقول:

ما نَفْعُه أنْ ظَلَّ قلبي مَعِي؟ وأنتِ لن تَأتي ولن تَرْجعــي

قَــلْــبي الذي كسَّر عكَّازَهُ ثـمَّ مَشَى حَبْوًا عـلى أَرْبـعِ

كَانَ مِن الأَحْلام فِــي جَنَّــةٍ والآن فِــي رَمْلٍ وفِي بَـلْقَـعِ(٤٩)

كَمْ شقَّ فِيه الحزْنُ جُبًّا فَلَمْ أَرْفَأْ(٥٠) لَه جـرْحًا ولـم أَرْقَـعِ(٥١)

لَمْ يَعِ حَتَّى اليَوْمِ مَا قَد جَرى لا لَوْمَ لا تَـثْرِيبَ إذْ لَـم يَــعِ

مـثْلُكِ قَلْبِي مَــات لَــكــنَّـه مَا مَات عَن حُبّكِ إذْ مَا نُعِـي

مَكَانُه إنْ حَيْث شَاءَ الهَوى ولَيْس حَشْوَ الصَّدرِ والأَضْلـعِ

خُذِيهِ يَا بُشْرَى فَمَا لِي بــه مِـنْ حَـاجَـةٍ تُرْجَى ولا مَطْمَـعِ

فما فائدة القلب وقد رحلت من كانت تسكنه؛ ففَنِيَ من حزنه عليها ولكن حبها لم يفْنَ، فلتأخذه معها فما يَرتجِي بعدها أملا.

ولم تخرج معاني رثاء الزوجة عند البياسي عما جاء في شعر مَن سبقوه مِن تحسرٍ على لحظاتٍ مرت مع الفقيد، عزاء النفس بحتمية الموت، مخاطبة القبر، الفرار إلى الموت واللوذ به من عذاب الفراق ولوعته.

رثاء الوالدين:

حَظِيَ رثاء الوالدين بعناية الشعراء، خاصة رثاء الأم؛ ففقدهما انكسار وغربة، ومن رثاء الأم؛ قول الصنوبري[٥٢]، الذي عَدَّه الدكتور شوقي ضيف" من أقدم من رثوا أمهاتهم إن لم يكن أقدمهم" [٥٣]، يقول[٥٤] :

قَد صَوَّحتْ روضَتيَ المونقه وانْتُزعتْ دَوحتيَ المورقَهْ[٥٥]
بَـابٌ إِلَى الجنَّـة ودَّعـتُـهُ مُنْذ رأيتُ المَوْتَ قَد أغلقَهْ
لا يبعَدَنْ مثواكِ يـا أمّ مـا أبعدَ مـثـواكِ ومَا اسحقَهْ

فبموت والدته يبست روضته البديعة، وأُغلق أحد أبواب الجنة.

كذلك قول الشريف الرضي[٥٦] في رثاء أمه: [٥٧]

أبكِيكِ لوْ نَقَعَ الغَلِيلَ بُكَائِي وَأَقُولُ لـو ذَهَبَ المَقَالُ بِدَائِـي
وأَعُوذُ بالصَّبْرِ الجَمِيلِ تَعَزِّيًا لو كَان بالصَّبْرِ الجَمِيل عَزَائِي
طَوْرًا تُكَاثِرُنِي الدّموُعُ، وتَارَةً آوِي إِلَـى أُكْرُمَـتي وحَـيَـائِي

ويرثي عبدالله البردوني[٥٨] أمه؛ فيقول في قصيدة"أمي"[٥٩] :

تَرَكَتْنِي هاهُنا بَيْنَ العَذابِ ومَضَتْ، يَا طُولَ حُزْنِي واكْتِئَابِي
تَرَكَتْني للشَّقا وَحْدِي هُنَا واسْتَرَاحَتْ وَحْـدَهـا بَيْنَ التُّرَابِ

لقد تركت والدة البردوني ابنها، يشكو عذاب الوحدة وألم الفراق.

وفي رثاء الأب يقول صلاح عبدالصبور[٦٠] –عقب تلقيه خبر وفاة والده– في قصيدة"أبي"[٦١] :

وأَتَى نَعْيُ أَبِي هَذا الصَّبَاحْ
نَام في المِيدَانِ مَشْجُوجَ[٦٢] الجبينْ
حَولَهُ الذؤبان[٦٣] تَعْوي والرِّيَاحْ

ورِفاقٌ قبَّلوه خَاشعِينْ
وبِأَقْدَام تَجرّ الأَحْذِيَة
وتَدُق الأَرْض فِي وقعٍ مُنَفِّر
طَرَقُوا البَاب عَلِينَا
وأتَى نَعيُ أَبِي

وهناك الكثير من القصائد التي نظمها الشعراء في رثاء آبائهم وأمهاتهم مثل: قصيدة "وأماه"[٦٤] لخليل مطران[٦٥] في رثاء والدته، وقصيدة"صادق بعد حين"[٦٦] للعقاد[٦٧] في رثاء والدته، وقصيدة أحمد شوقي في رثاء أبيه[٦٨]، و قصيدة محمود سامي البارودي في رثاء أبيه[٦٩]، وقصيدة"يا موت"[٧٠] لأبي القاسم الشابي[٧١] في رثاء أبيه أيضًا، واشتملت هذه القصائد على معاني الحزن والتفجع لفقد الوالدين، وصورت مشاعر الحنين للذكريات التي عاشها الشعراء في كنف الوالدين، ومشاعر الغربة والضعف أمام صروف الزمان.

وكذلك اشتملت قصائد البياسي في رثاء والديه على تلك المعاني، يقول من قصيدة"تركاني"[٧٢] :

تَركَانِي فِي غربةٍ واسْتَرَاحَا إنَّ مَنْ فَوْق الأَرْضِ لَا يَسْتَرِيحُ
أَبوايَ اللذان كَانَا حَيَاتِي لَيته ضَمّنا جَمِيعًا ضرِيحُ
يَا إلهي وأنْتَ عصْمةُ أَمْرِي إنَّ رُوحِي شَوْقًا إلَيْكَ تَصِيحُ
إنْ يَكُنْ مُنْتَهَايَ خَيْرًا فَخُذْهَا أوْ يَكُنْ بَعْدَ الضِّيقِ قَبْرٌ فَسِيحُ

لقد ترك الوالدان" البياسي" يقاسي الغربة والشقاء؛ فهما حياته التي ضاعت بفقدهما؛ فيناجي ربه بروح مشتاقة إلى خالقها، أن يأخذها، إنْ حَسُن الختام؛ فالحياة دونهما لا تطيب.

ويصور البياسي معاناته بعد فقدان أمه؛ فيقول من قصيدة "من الجهات الأربع"[٧٣] :

مَا زَال يَنْزفُ كُلُّ جرْحِـي مِن دَم ... ويَقُضُّ ذِكرُ السَّالميةِ[٧٤] مَضْجعِي
يَـالَيْت أنَّكِ حَيْث أَنْتِ تريننـي ... أو تَـسْمَعينَ تَـأَلمي وتَـوجُّـعِي
لَو كَـان يُرْجِعُ مَن يَـمُوتُ تـفجّعٌ ... لأَمَـاتَ مِن فَوق التُّراب تَفَجُّعـي
عُودي بِـربّـك إنَّ ربّـك قَـادِرٌ ... ودَعِي مَكَانًا لَـيْس يُـتْرَكُ وارْجِـعِي
ولَقد رَجوتـكِ أن خُذِينِي أو عِـدِي ... وسَفحتُ عِند غبَارِ خَطْوِكِ أَدْمُعِي
مَا عَاد فـي الدُّنْيَا بنفسيَ مَـطْمعٌ ... إذْ كَان يَا أُمّي جـوَارُك مَـطْمَعِـي
لمَّـا رحلتِ وكـان قَلْبِي هَوْدَجًـا ... والرّكـب كَـان تَـوسلِي وتَضَرُّعِـي
وَمَضيتِ فِي جِهَة السَّمَاءِ أَلَمَّ بِي ... حُـزْنُ اليَتِيمِ مِـنْ الجِهَاتِ الأَرْبعِ

فلازال موت والدته جرحا لا يندمل، ويؤرقه ذكرى السالمية حيث هناك أمه؛ فياليتها تراه وتسمعه، وياليتها تعود – بقدرة الله – فكم تمنى ذلك أو تأخذه معها حيث هي؛ فما متعة للدنيا بعدها، وبفراقها أحاطه اليتم من كل الجهات.

ويصور البياسي حزنه على والديه، حزنا أسدل جناحه على المنطقة كلها؛ يقول من قصيدة " مِبضع الجرَّاح"[٧٥] :

فـي السَّالمية مَـا تركتُ للحظةٍ ... شُبَّـاكَ أَحْـلَامِـي وَبَـابَ صباحِي
مَا كَـان يغْنِينِي ويَوْمِي مشْرِقٌ ... نَـومُ الشُّمُوع وغَـفْوَةُ المِصْبَـاحِ
لاحقتُ أَسْرَابَ السنـونو والقَطَـا ... ومَشيتُ تَـحْتَ سنَـابِـلِ التُّـفَّـاحِ
حلّقتُ ما بين الجبالِ إلى الذرى ... حَـتَّى تَـبَلَّـلَ بِالغـيُوم جنَـاحِـي
فِي السَّالمية عِنْدَمَا حَكَمَ القَضَا ... أَطلـقتُ مِن أسرِ الغرور سَرَاحِي
وَرجعْتُ لَا أمّـي هُنَاك ولَا أَبِـي ... بَل لطمُ أَمْوَاجٍ وعصفُ رِيَـاحِ
والنَّـاسُ بَعد الله مَـن لسفينهـم ... إلَّا الشِّرَاعُ وحـكْـمـةُ الـمَـلَّاحِ

فَـارقتُ أَوْهَــامِي وبِعتُ مَطيّتِـــي وَهَجَرْتُ كُـــلّ مَنَـــازِلِ الأَشْبَاحِ
وشُفيتُ مِن مَرَضِي القَدِيمِ وعِلَّتي فِي قَتْلِ أَوْجَاعِي وقَهرِ جِرَاحِـــي
فِي السَّالميةِ كُـــلُّ قَلْبٍ نَـــابِضٍ يَـرْتَـــاعُ عِـنْـد مَغَـارةِ السَّفَّاحِ
فِـــي السَّـــالِميةِ جَنَّـــةٌ مَحْزُونَـــةٌ زَهـــرٌ وفُـــلٌّ ذَابـــلٌ. . وأَقَـــاحِ
فِـــي السَّالمية وَرْدَةٌ مَقْتُولَـــةٌ بِـيـدِ الطَّبِيبِ ومِبْضعِ[٧٦] الجَـرَّاحِ
مَاتتْ هُنَا أُمِّي. . قِفُوا واسْتَرْجعُوا لَا شَيءَ يَكْبحُ كَالصَّـلاةِ جِمَاحِي

رثاء النفس:

وكما رثى الشعراء أهلهم وأحبابهم، رثوا أنفسهم وبكوا على أحوالهم، فإذا ضاقت الدنيا وداهمتهم النوائب و شعروا بدنو آجالهم هرعوا إلى عالم الشعر يبثون من خلاله قلقهم وتبرمهم من الدنيا وأسفهم على ما آل إليه حالهم، وشبابهم الذي ضاع، بل إن منهم من شدة يأسه من الحياة ونقمه عليها، يدعو الموت وينتظره مرحبا به، ومن أشهر من رثوا أنفسهم في العصر الجاهلي الشاعر عبد يغوث الحارثي، ويقال إنه أُسر يوم الكلاب الثاني[٧٧] ؛ فرثى نفسه بقصيدة طويلة يقول في مطلعها[٧٨] :

أَلَا لا تَلُومَانِي كَفَى اللَّوْمَ مَا بِيَا وَمَا لَكُمَا فِي اللَّوْمِ خَيْرٌ ولا لِيَـــا
أَلَـــمْ تَعْلَمَا أَنَّ المَـلَامَةَ نَفْعُهَـا قليلٌ، ومَا لَوْمِي أَخِي مِنْ شِمالِيا
فـــيا راكبا إمَّـــا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ نَدَامَايَ مِـن نَجْرَانَ أَنْ لا تَلَاقِيَـا

ومن الشعراء المعاصرين نجد البارودي يرثي حال نفسه بعد أن أصابه الكبر والوهن وضاع ماكان يملك من القوة والفتوة، يقول[٧٩] :

أَصْبَحْتُ لا أَسْتَطِيعُ الثَّوْبَ أَسْحَبُهُ
وقد أكونُ وَضَافِي الدِّرْعِ سِرْبَالِـي
ولا تَكَـــادُ يَدِي تُجْرِي شَبَا قَلَمِي

وَكَــانَ طَوْعَ بَنَـــانِي كُــلُّ عَسَّالِ

وكذلك البياسي أصابه اليأس والملل من الدنيا وكثرة ما لاقاه فيها؛ يقول من قصيدة" في فم المنفى"(٨٠) :

هلكتُ وكم تعبتُ وكم شَقِيتُ وما أَرضى الحواسدَ مالقِيتُ
أفرُّ من السرور إذا دعـاني كأنّي مــا سمعتُ ولا دُعيتُ
فما لي في السعادة من نصـ يبٍ ولو في إثْرِها دهرًا حَفيتُ
أبشُّ أنا إلى عيشي بوجهي وهذا وجــه جـــهمٌ مقيتُ
وما ذُكّرتُ من فرحي بشيء به إلا وقلتُ: لـــقد نسِيتُ
يغادر ثم يرجـــع كلُّ هـــم كأني للهموم أنـــا المَبيتُ
وكيف وإذْ أنا وطـــنٌ لغيري أراني في فم المنفى رُميتُ!!
إذا اللهُ ابتلى في الأرض عبدًا أحسُّ بأنني عنه ابتليتُ

فما نال البياسي من الدنيا سوى الشقاء وما كان له في السعادة من نصيب، ذاق الهموم بكل صنوفها؛ فَخَلُص إلى أن الحياة وهم ليس فيها ما يحث على التمسك بها، يقول:

سرابٌ كلُّها الدُّنيا . . ووهمٌ فكيفَ على سرابٍ أَستميتُ
كَتبتُ على الحياةِ بماء قلبي ولكني أنـــا نفسي مُحيتُ
سُقيتُ من المصائب كلَّ لونٍ وأحسبُ أنني منها كُفيتُ

ويسأل محبوبته ألا تبكي عليه فكلٌ يفنى مهما طال العمر:

فلا تبكي عليّ ولا تخافي إذا أُسمعتِ أني قد نُعيتُ
فكلٌّ راحلٌ مهمـــا تأَبّى وإني رااااااحلٌ مهما بقيتُ
وما نادى منادي الموتِ إلا ظننتُ بأنني وحدي عُنيتُ

رثاء الوطن:

أما رثاء الأوطان؛ فقد رثَى الشعراء أوطانَهم على مر العصور بعد أن أصابها الوهن والاضمحلال؛ فإذا تحول حال الوطن من الازدهار والاستقرار إلى الضعف والفوضى، راح الشعراء يتحسرون على ماكان من مجد وعز للوطن، و قد رثى أحمد شوقي دولة الأندلس في قصيدة طويلة يقول في مطلعها(٨١) :

يـــا أُخت أَندلس عـليكِ سلامُ هَوَتْ الخلافةُ عنك والإسلامُ

نَزَلَ الهلالُ عن السماءِ، فليتها طويتْ، وعَـمَّ العالمين ظلامُ

وكما جاء بالبحث، أن سوريا تعرضت للفتن والصراعات خارجيا وداخليا؛ مما جعل البياسي يبكي على وطنه وما أصابه، يقول من قصيدة " معلق على الصليب"(٨٢):

وَطَنِي . . بَكِيت

وَمَنْ عَلَى أَوْجَاعِه يَبْكِي . .

وأَنْتَ على الصَّلِيبِ مُعَلَّق؟ !

الآن . .

بَعد كِنَانَةٍ وقضَاعَةٍ

فِي رقْعةِ الشَّطِرنج أَنْت البَيدقُ

قَدْ أَبْدَعَ التَّارِيخُ نَحْتَكَ تُحْفَةً

وأخاف أنك من يديه ستُسرَقُ

وَطَنِي المُمزَّقَ أَلفَ أَلفِ شظيةٍ

قلبي عليك من الأسى يتمزقُ

مُتَشَابِهَان . .

أَنَا وأَنْتَ حكايةً

أَعَليكَ قل لي . .

أم عليَّ سأشفقُ؟ !

يرسم البياسي صورة لوطن يئن من ويلات الحرب وعواقبها؛ فيشاركه البياسي أنينه؛ فالشاعر ينسى أوجاعه الخاصة ويتألم لوطنه الذي ضعف وتمزق بعد أن كان له مجد ومكانة رسمها التاريخ، ويخشى أن تُغتصب هذه المكانة ويسلب الأعداء تاريخ وطنه المجيد. لقد غابت شمس دمشق عن عشاقها فيستعجلها البياسي بأن تعود للإشراق و يشرق مجدها وعزها، يقول:

غَابَتْ عَن العُشَّاقِ شَمْسُك وَاخْتَفَتْ

فَمَتَى . .

مَتَى بِالله بَعْد . .

سَتُشْرِقُ؟ !!

وبعد، فإن ألم الفقد لا يُضاهيه ألم، جُرحٌ ينزف ما بقيَ الفاقد على قيد الحياة؛ فيلجأُ إلى استدعاء الموت ليريحه من هذا الألم ويقرّب إليه مَنْ فَقَدهم ؛ فالإنسان يحيا مادام بين أهله هانئ النفس وبكنف وطنه وعزه. وقد حُرِم البيَّاسي من الأهل والوطن وراحة النفس؛ فعبر بكلماته عما جاشت به نفسه من الحزن والألم، وصور فجيعة الفقد والإحساس بالوحدة، يرثي زوجته ورفيقة دربه ويصور حسرته عليها، وضياعه بعد فقد والديه، وحزنه على وطنه الممزق.

الهوامش

(١) السيرة الذاتية للشاعر محمد البياسي، أرسلها الشاعر للباحثة ملف (pdf)، عبر الرسائل الإلكترونية الإلكترونية بتاريخ ٢٣/ ٢/ ٢٠١٦م.

(٢) مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيّان، انظر: ياقوت الحموي : معجم البلدان، دار صادر، مج ١، د. ط، بيروت، ١٩٧٧م، ص ٥١٨.

(٣) أمين الدين أبو زكريا يحيى بن اسمعيل الأندلسي البياسي من الفضلاء المشهورين والعلماء المذكورين، قد أتقن الصناعة الطبية، وتميز في العلوم الرياضية، وصل من المغرب إلى ديار مصر، وأقام بالقاهرة مدة، ثم توجه إلى دمشق وقطن بها. انظر: ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المطبعة الوهبية، ط١، ج٢، ١٨٨٣م، د. بلد النشر، ص ١٦٣.

(٤) أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البيَّاسي، أحد فضلاء الأندلس، وحفاظها المتقنين، انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبي العباس شمس الدين بن خلكان، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، دار صادر، مج٧، بيروت، ١٩٧٨م، ص٢٣٨.

(٥) أبو محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله الكناني الحشمي، من أهل بياسة بالأندلس، له قوله:

وأُلْبِسْتُ من سوسانَ ثَوبَ مُعَصْفِرٍ وجُرِّدتُ عن ثوبٍ من الورد أحمرِ

انظر: أبا طاهر السلفي: معجم السفر، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، دار الفكر، د. ت، بيروت/ لبنان، ١٩٩٣م، ص١٥٠.

(٦) مدينة ساحلية سورية تُطل على البحر الأبيض المتوسط وتتبع محافظة طرطوس، وهي المركز الإداري لمدينة بانياس. انظر الموقع الإلكتروني (ar. m. wikipedia. org)

(٧) حوار خاص مع الشاعر عبر الرسائل الإلكترونية بتاريخ ١٦/ ٣/ ٢٠١٦م.

(٨) رابطة إلكترونية تضم الكثير من شعراء العرب المغمورين والمشهورين.

(٩) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، شرحه: أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الإبياري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٢م، ج٣، ص٤٦، ٢٢٨.

(١٠) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، مج١٤، ص٣٠٩.

(١١) أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، دار الكتب العلمية، ج٢، ط٣٠، بيروت، د. ت، ص٣٤٣.

(١٢) ينظر: شوقي ضيف: الرثاء، دار المعارف، ط٤، القاهرة، د. ت، ص٥، ٦.

(١٣) انظر: محمد البياسي: ديوان "جالا"، دار الرابطة للنشر والتوزيع، ط١، الشارقة، ٢٠١٧م، ص٦٨: ٨٨، ضمن البياسي قصيدة "سامحيني"، قصيدة"على عتبات قرطاج"الموجودة بديوان "حب ممنوع"ص١٥٥، وقد سألت الشاعر عن هذه القصيدة سابقا قال إنها عن حبيبة ماتت في حادثة، إذًا لم تكن التجربة الشعرية لهذه القصيدة في رثاء زوجته، وربما ضمنها البياسي قصيدة الرثاء لأنها تعبر عن نفس الحالة والشعور؛ وهو فقدان محبوبة .

(١٤) محمد البياسي: ديوان جالا، ص١١٧، ١١٨.

(١٥) محمد البياسي: ديوان حب ممنوع، ص٩٣.

(١٦) محمد البياسي: ديوان يا شام، ص١١٥: ١١٦.

(١٧) محمد البياسي: ديوان يا شام، ص١٣٥: ١٣٦.

(١٨) محمد البياسي: جالا، ص ٩٥.

(١٩) محمد البياسي: جالا، ص ١٠١.

(٢٠) يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة، ط٥، بيروت، ١٩٨٦م، ص٣٢٧.

(٢١) ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده، دار الجيل، ج٢، ط٤، بيروت، ١٩٧٢م، ص١٥٤.

(٢٢) المرزباني: معجم الشعراء، صححه وعلق عليه أ. د/ ف. كرنكو، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩١م، ص٥٦.

(٢٣) بكِّيها: بكَيْت الرجل وبَكَّيْته، بالتشديد، كلاهما إذا بَكَيْتَ عليه. انظر: لسان العرب، دار صادر، مج ١٤، ص٨٣.

(٢٤) محصية: المحصي؛ هو الذي أحصى كلَّ شيءٍ بعلمه. انظر: لسان العرب،، دار صادر، مج ١٤، ص١٨٤.

(٢٥) قرحَتْ: القَرْحُ والقُرْحُ، لغتان: عضُّ السلاح ونحوه مما يجرح الجسد ومما يخرج بالبدن. انظر: لسان العرب، مج٢، ص٥٥٧.

(٢٦) جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، أبو حزرة، من تميم. أشهر أهل عصره، ولد ومات في اليمامة. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص٣١٥.

(٢٧) جرير: ديوانه، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مج٢، د. ط، د. ت، ص٨٦٢، موجود.

(٢٨) عادني: الشيء عوْدًا و اعتادني، انتابني. انظر: لسان العرب، دار صادر، مج٣، ص٣١٨.

(٢٩) استعبار: اسْتَعْبَرَ: جَرَتْ عَبْرته وحَزِن. انظر: لسان العرب، دار صادر، مج٤، ص ٥٣٢.

(٣٠) مسلم بن الوليد الأنصاري، من أبناء الأنصار، كان مداحا محسنا، لُقِّب ب"صريع الغواني"، انظر: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، ج٢، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٨٢٢.

(٣١) مسلم بن الوليد الأنصاري: شرح ديوان صريع الغواني، تحقيق سامي الدهان، دار المعارف، ط٢، القاهرة، د. ت، ص٣٤١.

(٣٢) الهيثم بن الربيع بن زرارة، من بني نمير بن عامر، أبو حية. شاعر مجيد، فصيح راجز، من أهل البصرة، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص ٤٧.

(٣٣) محمد بن عبدالملك بن أبان بن حمزة، أبو جعفر المعروف بابن الزيات. وزير المعتصم والواثق العباسيين. انظر: يحيى مراد: معجدم تراجم الشعراء الكبير، ص١٠٨.

(٣٤) علي بن العباس بن جريج أو جورجيس، الرومي. شاعر كبير، رومي الأصل، ولد ونشأ ببغداد ومات فيها. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص ١٠٦: ١٠٧.

(٣٥) عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب، أبو محمد، الكلبي. شاعر مجيد، مولده ووفاته بحمص، في سورية. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص ٣٨٠.

(٣٦) انظر: محمدعبدالعزيز الموافي: رثاء الزوجة بين عزيز أباظة وعبدالرحمن صدقي، دار الثقافة العربية، د. ط، القاهرة، د. ت، ص٩: ١١.

(٣٧) عزيز بن عثمان أباظة. شاعر مصري من رجال الأدب واللغة والقضاء. ولد في " الربع ماية" بمحافظة الشرقية بمصر. انظر: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية)، مؤسسة الرسالة، ج٢، ط١، ١٩٩٣م، ص ٣٧٧.

(٣٨) محمد عبد العزيز موافي : رثاء الزوجة بين عزيز أباظة وعبدالرحمن صدقي، ص١١٢.

(٣٩) عبد الرحمن بن محمد عثمان صدقي. شاعر مصري من الكتّاب ولد في المنصورة شمالي مصر. انظر: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج٢، ص١١٧.

(٤٠) محمد عبد العزيز موافي: رثاء الزوجة بين عزيز أباظة وعبدالرحمن صدقي: ص١٤٦.

(٤١) محمود سامي بن حسن حسني بن عبدالله البارودي، الجركسي الأصل، المصري. أديب، شاعر، من القواد العسكريين. ولد بالقاهرة. انظر: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ج٣، ص ٨٠٧

(٤٢) البارودي: ديوانه، دار العودة، د. ط، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٥٣.

(٤٣) الفَيْلَق: الكتيبة العظيمة من الجيش. انظر: المعجم الوسيط، ص٧٠١.

(٤٤) الطِّراد: فرسان الطِّراد: هم الذين يحمل بعضهم على بعض في الحرب ونحوها. انظر: المعجم الوسيط، ص٥٥٤.

(٤٥) محمد البياسي: ديوان جالا، ص٧١.

(٤٦) الفَيْروز: اسم فارسي، حجرٌ كريم غير شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السماء أو الميل إلى الخضرة انظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مج٥، ص٣٩١، المعجم الوسيط: ص ٧٠٨.

(٤٧) مدد: المدُّ: الجذب والمَطْلُ. مَدَّه يَمُدُّه مَدًّا ومَدَّ به فامتدَّ ومَدَّدَه فَتَمَدَّد، انظر: لسان العرب، دار صادر، مج٣، ص ٣٩٦.

(٤٨) محمد البياسي: ديوان جالا، ص١١٧، ١١٨.

(٤٩) بلقع: البلقع الأرض القفر التي لاشيء بها، انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، مج٨، ص٢١.

(٥٠) أرفأ: رفأ الثوب، لَأَم خَرْقَه وضمَّ بعضه إلى بعضٍ وأصلح ما وَهَى منه، انظر: لسان العرب، دار صادر، مج١، ص٨٧.

(٥١) أرقع: رقع الثوب والأديم بالرقاع يَرْقَعَه رقعًا ورقَّعه: أَلْحمَ خَرْقه، انظر: لسان العرب، دار صادر، مج٨، ص١٣١.

(٥٢) أحمد بن محمد بن الحسن بن مرار الضبي الحلبي الأنطاكي أبو بكر. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص ٢٢٩.

(٥٣) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي(العصر العباسي الثاني)، دار المعارف، ط٢، القاهرة، د. ت، ص٣٥٧، ٣٥٨.

(٥٤) الصنوبري: الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط١، بيروت، ١٩٩٨م، ص٣٧٤.

(٥٥) صَوَّحَتْ: صوح: تَصَوَّحَ البَقْلُ وصَوَّحَ: تَمَّ يُبْسُه، انظر: لسان العرب، دار صادر، مج٢، ص٥١٩.

(٥٦) محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي العلوي الحسيني الموسوي. مولده ووفاته في بغداد. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص ٢٢٣.

(٥٧) الشريف الرضي: ديوانه، دار صادر، مج١، د. ط، بيروت، د. ت، ص٢٦.

(٥٨) عبدالله بن صالح بن عبدالله بن حسن الشحر البردوني، ولد عام ١٩٢٩م بقرية البردون، من أعمال مركز الحدّا التابع لمحافظة صنعاء. انظر: مساعد بن سعد بن ضحيان الذبياني: السخرية في شعر عبدالله البردوني، رسالة ماجستير بجامعة أم القرى، منشورة بتاريخ ١٤٣١هـ.

(٥٩) عبدالله البردوني: ديوانه (الأعمال الشعرية)، مكتبة الإرشاد، ط٤، مج١، صنعاء، ٢٠٠٩م، ص ١٠٨.

(٦٠) محمد صلاح الدين عبد الصبور يوسف الحواتكى، ولد في ٣ مايو ١٩٣١ بمدينة الزقازيق، انظر: https: / / ar. wikipedia. org/ wiki.

(٦١) صلاح عبدالصبور: ديوانه، دار العودة، ط١، بيروت، ١٩٧٢م، ص٢٣.

(٦٢) مَشْجُوجٌ: شَجَّهُ يَشُجُّه و يَشِجَّه شَجًّا، فهو مشْجوجٌ، والشَّجَّةُ: الجُرْحُ يكونُ في الوجه والرأس فلا يكون في غيرهما من الجسم، انظر : لسان العرب، دار صادر، مج٢، ص٣٠٤.

(٦٣) الذُّؤبان: جمع الذِّئْب: كلب البَرّ، انظر لسان العرب، دار صادر، مج١، ص٣٧٧.

(٦٤) انظر: خليل مطران: ديوان الخليل، دار مارون عبود، ج٣، د. ط، بيروت، ١٩٧٧م، ص٢٤٧.

(٦٥) خليل بن عبده بن يوسف مطران. شاعر، ولد في بعلبك (بلبنان)، وسكن مصر. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص ٣٧٠.

(٦٦) انظر: العقاد: ديوانه"عابر سبيل"، منشورات المكتبة العصرية، ج٧، د. ط، بيروت، د. ت، ص٩١٥.

(٦٧) عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد. أديب مصري، شاعر، ناثر. أصله من دمياط بمصر. انظر: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ص٣٧.

(٦٨) انظر: أحمد محمد الحوفي: ديوان شوقي(توثيق وتبويب وشرح وتعقيب)، دار نهضة مصر، ج٢، د. ط، القاهرة، د. ت، ص٥٥٨.

(٦٩) انظر: البارودي: ديوانه، ص١٦١وما بعدها.

(٧٠) انظر: أبا القاسم الشابي ورسائله، تقديم راجي الأسمر، مؤسسة المعارف، ط١، بيروت، ٢٠٠١ م، ص١٠٢.

(٧١) أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم الشابي. شاعر تونسي، ولد في قرية الشابية. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص٣٢.

(٧٢) محمدالبياسي: ديوان"حب ممنوع"، ص٩٣.

(٧٣) محمد البياسي: يا شام، ص١١٥: ١١٦.

(٧٤) السَّالمية: قرية سورية تتبع ناحية المنصورة في منطقة الثورة في محافظة الرقة. انظر: الموقع الإلكتروني: https: / / ar. wikipedia. org/ wiki/ .

(٧٥) محمد البياسي: ياشام، ص ١٣٥: ١٣٦.

(٧٦) المِبْضَع: المِشْرَط. انظر: لسان العرب، دار صادر، مج٨، ص١٣.

(٧٧) عبد يغوث بن صلاءة، وقيل عبد يغوث بن الحارث. شاعر جاهلي يماني. انظر: يحيى مراد: معجم تراجم الشعراء الكبير، ص ٥٢٣.

(٧٨) المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، ط٦، القاهرة، د. ت، ص ١٥٥: ١٥٦.

(٧٩) البارودي: ديوانه، ص ٤٥٣.

(٨٠) محمد البياسي: جالا، ص ٩٥: ٩٧.

(٨١) أحمد شوقي: ديوان الشوقيات، مؤسسة هنداوي، د. ط، القاهرة، د. ت، ص ٣١٥.

(٨٢) محمد البياسي: جالا، ص ١٠١.